سلسلة : وُصُولُ التَّهَانِي بِتَفْرِيغِ أشْرِطَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ هَادِيْ (11)

كَلِمَةٌ

بعنوان

" الصدقُ معَ اللهِ، والثباتِ على الحقِّ "

وهي عبارة عن كلمةٍ توجيهيةٍ

عبرَ الهاتفِ لأهلِ تُونس

ألقاها فضيلة الشيخ /

محمد بن هادي المدخلي

- حفظه الله -

المُدرِّس في الجامعة الإسلامية

بالمدينة النبوية

ليلة السبت

13/ رجب / 1439هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا اله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وليُّ الصالحين ، ناصرُ المؤمنين ، ومذلُّ الكافرين، ومُعلي رايته رغم أنف المعاندين، وأُصلي وأُسلّم على خيرته من خلقه ، كما أمرنا الله- جل وعلا- بقوله : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ [الأحزاب:56] .

فاللهم صلِ وسلم وبارك على عبدك ورسولك ، نبينا محمد ، رحمة الله للعالمين، وحجته على الخلق أجمعين، وعلى آله، وأصحابه، وأتباعه بإحسانٍ إلى يوم الدين، أما بعد .

فإنه يسرنا في هذه الليلة- معشر الأحبة في الله - في جمهورية تونس الشقيقة ، يسرنا في هذه الليلة ، ليلة السبت ، ليلة الثالث عشر من شهر رجب، عام تسعةٍ وثلاثين وأربعمئة وألف ، أن نلتقي في هذه الكلمة؛ يُذكّر بعضنا فيها بعضاً ، ويوصي بعضنا فيها بعضاً في هذه الأيام ، أيام الفتن ، والتباس الحق بالباطل عند كثيرٍ من الناس ، والتباس الأمور ، واختلاطها على كثيرٍ من الناس، وتعظيمُ الأمور لقائليها، لا بدلائلها وصدق ناقليها ، فإلى الله المشتكى .

وإنما نتذاكر في هذه الأيام؛ لأن الذكرى كما قال ربنا- جل وعلا - ﴿ **تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الذاريات :55] ، ونسأل الله -سبحانه وتعالى - معشر الأحبة- أن يجعلنا وإياكم من هؤلاء الذين ينتفعون ، ويستمعون القول فيتبعون أحسنه .

والذي أحب أن أتذاكر به مع إخوتي وأحبتي وأبنائي في الله مسألتين في هذه الباب ، أتكلم فيهما :

المسألة الأولى : الصدق مع الله -تبارك وتعالى- .

والمسألة الثانية : الثبات على الحق .

فهاتان المسألتان مهمتان لكل مسلم في حياته .

فأما الصدق مع الله – جل وعلا– معشر الأحبة– ، وهذا أصلٌ عظيم ، وركنٌ ركين في حياة المسلم ، وأجَلُّ أنواع الصدق في حياتنا –معشر الأحبة– أن نكون صادقين مع ربنا –تبارك وتعالى– صادقين معه في إيماننا به، وصادقين معه في اعتقادنا، الذي يجب أن نعتقده فيه – سبحانه وتعالى– الاعتقاد الحسن الصحيح الذي جاءنا به رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، وأيضاً إذا صدقنا مع الله، وحققّنا الاعتقاد، وقمنا بذلك، وصدقنا بعد ذلك مع الخلق ؛ فإن الله – سبحانه وتعالى – يوفقنا ، ويعيننا ، ويسددنا ، وقد قال –جل وعلا– : ﴿ **لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** ﴾ [البقرة: 177] .

فالواجب علينا –معشر الأحبة– أن نكون ممن وصفهم الله – سبحانه وتعالى– بهذه الأوصاف العظيمة، التي أولها الإيمان بالله – تبارك وتعالى–، واليوم الآخر، والملائكة، والكتاب، والنبيين، هذه أركان الإيمان الستة، ذكر منها هنا خمسة .

فإذا قام العبد على كل حال بإيمانه بالله على الوجه اللائق ؛ فإن الله – سبحانه وتعالى– يوفقه، والله –سبحانه وتعالى– يسدده ، لماذا ؟ لأنه دخل في زُمرة المتقين، والله – جل وعلا – مع المتقين، وهناك شهد ربنا وتبارك لمن قام بهذه الأمور بقوله –سبحانه وتعالى– : ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا** ﴾ يعني في إيمانهم ، لأنَّ أعمالهم صدّقت إيمانهم ، ثم قال –جل وعلا– : ﴿ **وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** ﴾ [البقرة: 177] .

فمن شهد الله له بالإيمان والتقوى بسبب صدقه مع الله، وإيمانه بالله على الوجه الصحيح ؛ فإنه هو الموفق ، وهو الفائز ،

وهو المفلح، وهو المهتدي، وهو الناجي عند الله – جل وعلا – يوم القيامة، فإنه لا نجاح ولا فلاح في الدنيا ولا في الآخرة إلا بالصدق مع الله – جل وعلا– ، كما قال – سبحانه – في سورة محمد : ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ [محمد : 21] .

فالصادق مع الله لا يجني إلا الخير، فنسأل الله – سبحانه وتعالى– أن يجعلنا وإياكم منهم .

وليس للعبد شيءٌ أنفع من صدقه مع الله – تبارك وتعالى– ؛ فبه يُنجيّه الله – جل وعلا – في الشدائد ، وبه يخرجه – سبحانه وتعالى – من الورطات، وبه – سبحانه وتعالى– يظهره على من عاداه، كما قال ابن القيم رحمه الله في كلمة له في هذا جامعة ، يقول – رحمه الله – : " ليس شيءٌ أنفع للعبد من صدقه مع ربه في جميع أموره، ومن صدق الله في جميع أموره صنع الله له فوق ما يصنع لغيره" [1] ، نسأل الله –سبحانه وتعالى – أن يجعلنا وإياكم من هؤلاء الصادقين، قال – جل وعلا – : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة: 119] .

فأهل الصدق هم أهل الفوز يوم القيامة، وهم أهل الظهور في هذه الحياة الدنيا ، فمن خرج من حظ نفسه وقام بحق ربه – تبارك وتعالى– وراقب ربه – سبحانه وتعالى – أصلح الله أحواله في الدنيا وفي الآخرة، يعطيه ما يتمنى في الدنيا، وينيله ما لم يخطر بباله في الآخرة .

فالصدق مع الله جل وعلا– معشر الأحبة – ليست كلمةً سهلة، وما أكثر من يُردِّدها ، ليست كلمةً سهلة، وإنما هي لها قيودٌ ثقال، ولها أعمال يجب علينا جميعاً أن نتأمل فيها ، وأن نتفكر فيها ، وأن نسعى جاهدين إلى تحقيقها، ولا يكون تحقيقها – كما قلتُ لكم – في أول هذه الكُليمات إلا بتحقيق توحيد الله، والإيمان به على الوجه المطلوب، – كما سمعنا قبل قليل – وبإخلاص العبادة له، وبالكفر بكل ما يعبد من دونه – تبارك وتعالى– ، و بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه .

---

[1] الفوائد (ص186) .

فمن كان على هذا النحو كان مخلصاً في أعمال دينه لله -جل وعلا- كان من أولياء الله - جل وعلا- الذين قال فيهم : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [يونس:62-64] .

فإذا نحن قمنا بذلك - أيها الأحبة- فإنّ الله - سبحانه وتعالى- يُفرِغ علينا الصبر، ويعيننا على أنفسنا في أداء حقه وطاعته - سبحانه وتعالى- ويُفرِغ علينا الصبر في مقابلة من خالفنا من الكفار وعموم الأعداء اذا تسلّطوا علينا، وإذا نحن تركْنا الصدق مع الله تركَنا الله- تبارك وتعالى- وسلَّط علينا .

فيا -أيها الإخوة- الوجب علينا جميعاً أن نقوم في هذا الباب مع الله - تبارك وتعالى-، ولا نراقب إلا هو - سبحانه وتعالى- ، فمن راقب الله - جل وعلا - ، وقام بحق الله - جل وعلا - أصلح أموره، وأصلح أموره كلها ، أصلح الله - تبارك وتعالى- حاله، أصلح حاله في الدنيا ، وأصلح مآله في الاخرة - فكما قلت- في عبارة ابن القيم - رحمه الله- : " من صدق مع ربه في جميع أموره صنع الله له فوق ما يصنع لغيره" .

فنسأل الله - سبحانه وتعالى- أن يجعلنا وإياكم من أهل الصدق الذين امتدحهم الله في كتابه، فهذه ميزة أهل الإيمان ، متبعين فيها رسل رب العالمين، قال - جل وعلا -: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ [مريم:41] .

وقال -سبحانه وتعالى- عن ابنه إسماعيل : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ [مريم:54] .

وقال عن عباده المؤمنين : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾ [الأحزاب:23] .

يقال إن هذه الآية نزلت في أنس بن النضر عم أنس بن مالك -رضي الله تعالى -عنهم جميعاً .

والصادقون مع الله لهم كل خير -كما قلت قبل قليل - في الدنيا وفي الآخرة ، قال الله - جل وعلا- :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلى لَهُمْ * طاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ ﴾ [محمد:20-21] .

وأسأل الله – سبحانه وتعالى- أن يجعلنا وإياكم من عباده الصادقين، الذين إذا ابتلاهم الله في صدقهم ثبتوا عليه، فإذا رأى منهم ذلك نصرهم الله ، وأظهرهم ، وأظهر صدقهم ، وأظهر في العالمين مكانهم ، وأعلى بين عباده قدرهم ، ولهم عنده النعيم المقيم في جنات النعيم ، فنسأل الله – سبحانه وتعالى- أن يجعلنا وإياكم من هؤلاء .

والفتن والمحن في الدنيا تعرض للعبد ، يختبر الله -سبحانه وتعالى -بها عباده؛ ليعرف مقدار صدقهم معه، ويعلم مع يدور في خلجات نفوسهم ، وصدورهم ، وقلوبهم ، فالله – سبحانه وتعالى- هو الذي يحول بين المرء وقلبه، وهو – سبحانه وتعالى– الذي إليه نُحشر ، فالواجب علينا جميعاً أن نراقبه في أقوالنا ، وأفعالنا ، لإننا محشورون إليه ، وقادمون عليه، وواقفون بين يديه، فهو الذي يجازينا – سبحانه وتعالى- بالطاعات، وهو الذي – سبحانه وتعالى – يستر علينا السيئات، فيتجاوز عنها بفضله ورحمته، ونسأل الله أن يتجاوز عنا بفضله رحمته، أو يأخذها بعدله وحكمته، ولكن نسأل الله أن يتجاوز عنا بفضله ورحمته .

وانظروا يا عباد الله إلى قصة كعب بن مالك -رضي الله عنه – حينما تخَلَّف في غزاة تبوك عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم- وقَدِمَ – عليه الصلاة والسلام- المدينة، وجاءه هؤلاء المنافقون يحلفون، ويطلبون رضى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فرضيَ عنهم في أول الأمر، وكشفهم الله – جل وعلا – وحلَّ عليهم السُّخط بعد ذلك .

وانظروا إلى كعب بن مالك ، كيف صدق الله – تبارك وتعالى –وإن كان قد قال لرسول الله –عليه الصلاة والسلام– : " والله لو قلت لك اليوم ، أو حدثتك اليوم حديثاً ترضى بها عني، ليوشكنَّ الله أن يسخطك عليَّ، ولئن حدثتك حديث صدق ، تجدُ عليَّ فيه ، تغضب عليَّ بسببه إني لأرجو فيه عفو الله " .

فانظروا إلى هذه الصدق مع الله – تبارك وتعالى– ، انظروا إلى هذه الصدق مع الله – تبارك وتعالى– ، فكيف بمن يكذب يريد أن ينال رضا فلان ورضا فلان ممن هم من عامة الخلق، وانظروا إلى هذا الصدق مع النبي – صلى الله عليه وسلم– ، يقول له : " والله يا رسول الله لو جلست إلى غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيتُ جدلاً " – أي فصاحة وقوة في الكلام، والبيان، والإقناع– ، " ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كَذِبٍ ترضى به عني ، ليوشكنَّ الله أن يسخطك عليَّ، ولئن حدثتك حديث صدقٍ تجد عليَّ فيه" انظروا –معشر الأحبة– يقوله للنبي "تجد عليَّ فيه "– يعني تغضب عليَّ فيه بسبب صدقي معك ، "إني لأرجو فيه عفو الله، والله ما كان لي من عذرٍ قط، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنك" ، فقال الرسول – صلى الله عليه وسلم – : " أما هذا فقد صدق" ، فأنظره – صلوات الله وسلامه عليه– ، هو وصاحبيه ، هلال بن أمية الواقفي ، ومرارة بن الربيع ، حتى أنزل الله – تبارك وتعالى – توبته عليهم، وكانت بعد مدة، كما قال الله –جل وعلا– : ﴿ **لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴾

ثم قال : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** ﴾ [التوبة: 117-119] .

فالواجب علينا –معشر الأحبة – أن نكون مع من كانت هذه حالهم، وهذه صفاتهم، لو أغضبوا الناس

لكنهم لا يرجون إلا رضى الله ، والله ليوشكنّ الله أن يظهر صدقهم، ويُرضيَ الناس عنهم؛ لأنهم لم ينظروا إلى الناس، وإنما نظروا إلى رب الناس، الذي قال لهم في آخر هذه الآيات : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** ﴾ [التوبة:119] .

فالواجب علينا -معشر الأحبة- أن نصدق الله - تبارك وتعالى- ، وأن نقوم بحقه علينا، وأن نتقرب إليه بطاعته، فوالله لا ينجينا إلا الصدق، فالواجب علينا أن نقوم بذلك، وأن نعلم أن الله - سبحانه وتعالى- يبتلي عباده، فإذا ابتلاهم يعلم الصادق منهم، ويعلم الكاذب .

والصادق يثبت في وقت المحن؛ لأنه لا يهمه أحد ، وإنما ينظر إلى رضا الباري - تبارك وتعالى- ، وإذا كان النظر إلى رضا الله - تبارك وتعالى - فالله - سبحانه وتعالى- يُثبّته، ويعينه، ويوفقه، ويسدده، نسأل الله - جل وعلا - أن يجعلنا وإياكم من هؤلاء .

قال الله - سبحانه وتعالى- عن هؤلاء : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** ﴾ [التوبة:119] .

فأمرنا بأمرين : بأن نتقيه ، وأن نكون مع الصادقين، والصادقون جزاؤهم يوم القيامة الفوزُ العظيم، قال الله -جل وعلا-: ﴿ **قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم** ﴾ [المائدة: 119] .

فنسأل الله - سبحانه وتعالى - بأسمائه الحسنى، وصفاته العلى : أن يجعلنا وإياكم مع هؤلاء الصادقين؛ الذين يجزيهم هذا الجزاء العظيم، في زمنٍ هم أحوج ما يكونون فيه إلى الأجر، فإنَّ الأجر إنما هو بيد الله، والنصر إنما هو بيد الله، والعزة والرفعة إنما هي بيد الله، والخفض والإذلال والإهانة إنما هي بيد الله، فالله - سبحانه وتعالى-المعز، المذل، وهو الخافض، الرافع، وهو الباسط، الرازق - سبحانه وتعالى- .

ولكنَّ كثير من الناس إذا جاءت الفتن، ونزلت البلايا، وحلَّت بالناس الأحداث، ونزلت بهم المحن فإنهم

يضطربون فيها، وإذا اضطربوا فيها أظهر الله – سبحانه وتعالى– من حقائق الصادقين، وكشف من معادنهم، وميّزهم عن غيرهم، ميّزهم عن الخبيث، وميّزهم عن السّيء ، ميّزهم ، وأظهرهم بسبب صدقهم ، كما قال الله – جل وعلا– وله في ذلك الحكمةُ البالغة : ﴿ **لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ** ﴾ [الأنفال:37] .

وهذا من حكمة الله– جل وعلا– في ابتلائه لخلقه، كما قال –جل وعلا– : ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ** ﴾ [محمد:32] .

فهذه الحياة – معشر الأحبة– هي ميدان ابتلاء، ودار امتحان، ودار اختبار، والناس فيها يتفاوتون؛ فمنهم الصلب في دينه، والقوي في إيمانه ، يعبد الله – تبارك وتعالى– على اطمئنان، ومنهم الضعيف، ومنهم الإمعة، فهؤلاء الذين يعبدون الله على حرف ؛ إن أصابهم خيرٌ اطمأنوا به، وإن أصابتهم فتنة انقلبوا على وجوههم، خسروا الدنيا والآخرة، ألا ذلك هو الخسران المبين، كما قال – جل وعلا – : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ** ﴾ [الحج:11] .

فهؤلاء هم الإمّعَات، وهؤلاء هم الذين لا يقوم صبرهم ولا إيمانهم على علمٍ ويقينٍ، وإنما يقوم على تقليد ، وعلى تعظيمٍ للخلق، فهم في شك ، كلما جاءت فتنة انحرفوا معها، وكلما جاءت بليةٌ جرفتهم معهم، – فنسأل الله العافية السلامة– .

أما صاحبُ العلم، صاحبُ البصيرة، صاحبُ الإيمان الراسخ، صاحبُ العقيدة القوية، صاحبُ العقيدة الصحيحة، صاحبُ العقيدة الراسخة هذا تجده صابراً، فنسأل الله – جل وعلا – أن يجعلنا وإياكم منهم، هؤلاء هم الذين يثبتون في زمن الفتن، يصبرون في زمن الفتن، يتحملون في زمن الفتن، يُبصِرون في زمن الفتن، هؤلاء لهم الأجر العظيم، إن أصابتهم فتنة في هذه الدنيا صبروا، فكان خيراً لهم، وإن أصابتهم نعمة

شكروا، فكان خيراً لهم، وهذا لا يكون إلا لأهل الإيمان، فهذه هي العاقبة الحسنة، وهذه هي العاقبة الطيبة، وهذه هي العاقبة الحميدة ، هذه عاقبة العلم، هذه عاقبة الإيمان، هذه هي عاقبة من قام لدينه على بصيرة كما قال الله -جل وعلا- : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ [محمد: 19] ، فقدّم العلم على القول والعمل .

قال -جل وعلا -: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: 108] ، فمن قام بذلك فله العاقبة الحميدة .

والله ربنا -جل وعلا- يقول :﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف:128].

قال -سبحانه وتعالى- : ﴿ وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران:120] .

فالإيمان - معشر الأحبة- الايمان الصحيح، والعقيدة الصحيحة السلفية الأثرية، هذه العقيدة القوية، التي يعقد المرء والقلب عليها، فيكون أثرها في حياته الدنيا قوياً بارزاً واضحاً جلياً ، يعنيه الله -سبحانه وتعالى- به على الصبر إذا نزلت به الممات، يعينه الله به على الصبر إذا حدثت الأحداث ، يعنيه الله - سبحانه وتعالى- به على الثبات في الفتن والمصائب والمحن والنوازل ، لأن إيمانه ثابت لا يتزعزع، لأنه أخذه عن علم، فيعلم علم اليقين أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطئه لم يكن ليصيبه، ويعلم علم اليقين أن الله - جل وعلا -قد تكفّل بنصرة أوليائه : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ * يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [غافر: 51-52] .

قال - جل وعلا -: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد:7-8] .

وقال -سبحانه- : ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران :126]،

﴿ يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الروم:5] .

قال – جل وعلا– : ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [الحج:40-41] .

هذا وعدٌ من الله – جل وعلا– ، ووعد الله لا يخلف، كما قال – جل وعلا– : ﴿ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم :6] .

فأسأل الله – سبحانه وتعالى– أن يجعلنا وإياكم من هؤلاء الثابتين في هذه المحن، وفي هذه الفتن، التي تعصف بالناس، وخصوصاً في هذه الأزمان؛ فتن شبهات، وفتن شهوات، –نسأل الله السلامة والعافية– .

فمن صبر، وثبت، وقاوم بالعلم الصحيح الموروث عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– صبَّره الله –جل وعلا–، وقوّاه الله– جل وعلا– ، ونصره الله – جل وعلا– ، وأظهره الله– سبحانه وتعالى– ، –جل وعلا– .

فالمؤمن شديدُ الثبات، قويُ اليقين، لا يتزعزع في عقيدته، ولا يتزحزح عن الحق الذي عرفه، لا تهوله الدعايات، ولا يعصف به وبإيمانه الأراجيف، ولا تخوِّفه الدعايات، بل هو ثابت على دينه، لا يخاف في الله – تبارك وتعالى– لومة لائم، خوفه إنما من هو من الله، أمّا من عباد الله فلا يخاف، بل إذا خوف بالعباد قال ما قاله عباد الله المؤمنين أصحاب الرسول – صلى الله عليه وسلم – قال الله – جل وعلا– عنهم : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران: 173-174] .

وقد جاء عن ابن عباس – رضي الله عنهما– في هذه الآية أنه قال : حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمدٌ – صلى الله عليه وسلم – حين قالوا له :﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران :173] .

ومعنى ﴿ **حَسْبُنَا اللَّهُ** ﴾ : كافينا، فصاحب الإيمان الصحيح لا يفوّض أمره إلا إلى الله، ولا يعتمد إلا على الله في أموره كلها، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يستعين إلا به، لأنه يعلم أن أزِمَّة الأمور كلها بيده - تبارك وتعالى- : ﴿ **وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ** ﴾ [الطلاق :3] .

والواجب علينا جميعاً أن نقوم بذلك - معشر الأحبة- قال - جل وعلا- : ﴿ **وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** ﴾ [المائدة : 23] .

قال سبحانه وتعالى لنبيه -عليه الصلاة والسلام- : ﴿ **وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ** ﴾ [الفرقان: 58] .

والواجب علينا -معشر الأحبة- أن نكثر من هذه الأدعية التي فيها الثبات على الحق؛ كقوله - عليه الصلاة والسلام- : " اللهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْ تُضِلَّنِي [2] ، أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ" [3] .

هكذا كان - عليه الصلاة والسلام- يضرع، يضرع إلى ربه - تبارك وتعالى- ، " اللهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ" .

وما أحوجنا إلى هذا الدعاء في هذه الأيام - معشر الأحبة- ، الذي عظمت فيه فتنة الصعافقة، قطع الله دابرهم،

" اللهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْ تُضِلَّنِي، أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ" .

فهكذا - عليه الصلاة والسلام- كان يستعيذ بربه، ويسأله -جل وعلا- ، ويتقربُ إليه .

والواجب علينا - معشر الإخوة - إذا كنا صادقين أن نكون هكذا، وأن نعلم أن التوكل الحقيقي إنما هو

---

[2] هنا كان سبقُ لسانٍ من الشيخ حفظه الله فقال: أن تصلني ، ثم رجع فصححها حفظه الله ، ثم قال: نعوذ بالله من خطأ اللسان . فليُنتبه .

[3] رواه البخاري في صحيحه برقم (7383) ، ومسلم في صحيحه برقم (2717) .

باعتمادنا الله، واستنادنا إليه، بحيث لا يبقى في قلوبنا تشويش، ولا اضطراب، ولا تعلُّقٌ بغيره – سبحانه وتعالى–، ونعلم أن هذه الدنيا فانية، وأنه لا يبقى إلا الصدق، ولا يصح الا الصحيح، ولا يعلو إلا الحق.

فنعتمد على الله – جل وعلا– ، وعلينا أن نبذل الأسباب، ومن هذه الأسباب : أن نقوم بعبادة الله وحده لا شريك له، وأن نواصل في أعمال الخيرات التي يثبّت الله بها عباده، فالنبي – صلى الله عليه وسلم – كان إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة، هرع إلى الصلاة – عليه الصلاة والسلام– .

فالواجب علينا أن نبادر إلى طاعة الله – تبارك وتعالى– أن نقوم بالأسباب؛ فالأسباب لا تنافي التوكل، من أنكر الأسباب لم يستقم له التوكل، كما قال أئمة الهدى –رحمهم الله– من أنكر الأسباب لم يقم له التوكل ، ومن اعتمد على الأسباب لم يكن من أهل التوكل.

فالأمر كله بيد الله –جل وعلا– ،فلا تُعلِّق نفسك بالأسباب فقط، فإنَّ الالتفات وتعليق القلب بالأسباب دون الرجوع إلى الله والتوكل على الله شرك في التوحيد ، ومحو الأسباب وعدم الأخذ بالأسباب وتنقص الاسباب كما يفعله المتصوفة الضُّلال هذا نقصٌ في العقل، –نسأل الله السلامة والعافية– ، وقدحٌ في الشرع.

وإنما التوكل الصحيح هو الذي يكون على هذا النحو الذي ذكرنا؛ إيمانٌ بالله، ويقينٌ بنصره –تبارك وتعالى–، وتفويض أمرنا إليه ، وأخذٌ بالأسباب.

فالواجب علينا – معشر الأحبة – أن نقوم بذلك كله، فإن هذا من أعظم الأسباب التي تثبتنا عند نزول الفتن.

أسأل الله –سبحانه وتعالى– أن يجعلنا وإياكم من عباده الصادقين، وأن يجنّبنا وإياكم الفتن، ما ظهر منها وما بطن، كما أسأله – سبحانه وتعالى– أن ينصر دينه، ويعلي كلمته، وأن يعز عباده المؤمنين، وأن يوفقنا وإياكم جميعاً لكل خير، وأن يصلح أحوالنا وأحوالكم وأحوال المسلمين في كل مكان ، حُكّاماً ومحكومين، وأن يعيذنا وإياكم جميعاً من مضلات الفتن، ما ظهر منها ما بطن .

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله، نبينا محمد ، وعلى آله ، وأصحابه، وأتباعه بإحسان، والحمد لله رب العالمين .

الأسئلة :

السائل : –حفظكم الله شيخنا – من بعض القواعد التي سمعناها في هذه الأيام قول بعضهم : " طعنك في خواص أصحاب العالم طعنٌ في العالم" ، وهل يصح الاستدلال عليها بكلام الشيخ العلامة العثيمين –رحمه الله– الذي عدَّ الطعن في خواص أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم– كأبي بكر وعمر طعنٌ في رسول الله وهل يصح هذا القياس؟

الشيخ : أظن هؤلاء الجهلة – ولله الحمد– هؤلاء متهوكون ، قد كفانا الله –جل وعلا– بالرد عليهم، فقام عليهم طلاب العلم من كل قُطر – ولله الحمد– فبيّنوا جهلهم وعوارهم ، النبي– صلى الله عليه وسلم– معصوم، وهؤلاء صحابته – رضي الله تبارك وتعالى عنهم – قد أخبرنا –جل وعلا– أنه رضي عنهم ورضوا عنه .

فمن هو مثل النبي –صلى الله عليه وسلم– معصوم؟ !

حتى يكون أصحابه إذا طُعِن فيهم كان طعناً في النبي هذا من ناحية .

ومن ناحية ثانية : الشيخ ابن عثيمين –رحمه الله– عالمٌ جليل، وفقيهٌ دقيقٌ نبيل، يعرف معنى الكلام، وله كلام في هذا، وبيَّن أن هذا خاصٌ بالنبي –صلى الله عليه وسلم – وبصحابته ، ولا يَشركه فيه أحد، ولكن أصحاب الهوى أعماهم الله بسبب أهوائهم، قال – جل وعلا – :﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف:5] ، وهؤلاء قد أزاغ الله قلوبهم عن كلام الشيخ ابن عثيمين، وما ذلك إلاَّ ليفضحهم –سبحانه وتعالى– وليبين سوء مقصدهم، وسوءُ القصد سببٌ عظيم في عدم التوفيق، قال –جل وعلا– : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ

﴿ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف:5] ، –نسأل الله العافية والسلامة– .

هؤلاء الزائغون، فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم عن معرفة الحق وعن إبصاره، وهو بين أيديهم، أمام أعينهم، ولكن هذا من حكمة الله – تبارك وتعالى– ليُظهر كذب الكاذبين، وزيغ الزائغين، وضلال المضلين، ويُعرِّيهم أمام الخلق أجمعين، حتى يعرف الناس جهلهم، ويعرفوا هواهم، فإذا عرفوهم بأهوائهم، وعرفوهم بجهلهم نفروا منهم ، فالحمد لله – تبارك وتعالى– الذي أظهر الحق ، وأخزى هؤلاء الكذابين.

فنسأله – سبحانه وتعالى– أن يُعزَّ دينه، ويعلي كلمته، وأن يظهر أهل الصدق في كل مكان وزمان، إنه جواد كريم، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد .

السائل :جزاكم الله خيراً شيخنا ، وبارك الله فيكم ، وأبنائكم في تونس يُسلِّمون عليكم، ويحبونكم في الله .

الشيخ : وعليكم وعليهم السلام ورحمة الله وبركاته ، ونسأل الله – جل وعلا – أن يجعلنا وإياكم وإياهم من المتحابين فيه، إنه جوادٌ كريم .

كما نسأله – سبحانه – أن يثبتنا على الحق والهدى حتى نلقاه، وألا يُضلنا بعد إذ هدانا ، إنه جوادٌ كريم .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

فرّغه

مُـحب الشيخ وتلميذه

ليلة السبت

13 رجب 1439هـ